بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التيسير والتفهيم في الدراسات الحديثية الأستاذ الدكتور المكي اقلاينة أستاذ السنة وعلومها جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية

MEKKI KLAINA

Abstract: *Facilitating&Understanding in the Hadith Studies" deal with a critical issue that has long concerned scholarssince early ages. It aims at making the science of Hadith easy for students and explaining it to them. It also serves those who have mastered it. Hadith scholars' publications stand as a witness of their distinction in this domain. They have set a good example not only for those who are studying Hadith but also for the other fields of studies. Knowledge has to spread out in different effective ways. This study will;insha-Allah; prove those efforts and demonstrate to students how to improve their levels. I have articulated it in a preface, two chapters and some advices. First Chapter: Hadith Studies Made Easy. Second Chapter: Understanding Hadith Studies.*

Keywords: Facilitating, Understanding, Hadith Studies

الملخص:

إن موضوع "التيسير والتفهيم في الدراسات الحديثية" يعالج مسألة دقيقة طالما أثارت اهتمام علماء الحديث منذ عهود متقدمة جدا بهدف تيسير مادة علوم الحديث على الطلاب، وتفهيمهم إياها، وفي الوقت ذاته، ما قاموا به يخدم المنتهين أيضا.

لأجل ذلك، نجد مصنفاتهم تشهد لهم بطول الكعب في هذا المجال، قدموا بذلك المثل الطيب للمشتغلين بالدراسات الحديثية خاصة، وبقية التخصصات عامة، لأن العلم يحتاج إلى النشر بأساليب متنوعة وناجعة.

وهذا البحث سيبين هذه الجهود إن شاء الله، وكذا سبل الرقي بمستوى الطلاب. لهذا، جعلته في تمهيد ومبحثين وتوصيات.

المبحث الأول بعنوان: التيسير في الدراسات الحديثية.

والمبحث الثاني بعنوان: التفهيم في الدراسات الحديثية.

وما التوفيق إلا بالله.

تمهيد:

إن الهدف الأساس من العملية التعليمية هو تبليغ المادة العلمية للطلاب على أحسن وجه بحيث يتمكن الطالب من استيعاب المعرفة المقدمة له في وقت مناسب، ويتفاعل معها حتى يتمكن من الفهم والعمل بمقتضاها.

ولاشك أن الإبداع لا يمكن أن يحصل في غياب حصول المتلقي للمعرفة بطريقة واضحة ومتكاملة تهدف إلى تكوين شخصيات قادرة على الدفع إلى الأمام بعجلة العلم.

وهذا الهاجس هو الذي جعل المربين عبر العصور يبحثون عن الطرق القمينة بتبليغ المعرفة إلى المتلقين حسب مستوياتهم المختلفة وبطريقة تصاعدية، بمعنى أنه لا يتم تقديم المعقّد له أوّل الأمر، وإنما يقدّم له الأسهل لكي يفهمه، ومن المفرد ينتقل به المدرس إلى المركّب.

وإذا علمنا أن الشريعة الإسلامية قائمة على التعليم وخلق المعرفة الصحيحة المبنية على الدليل لا على الهوى، علمنا السبب الذي من أجله كان الأمر بالقراءة في أول سورة نزلت على رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم هداية للناس، وهذه الآيات الدالة على أن الرسول بعث ليبين للناس ما نزل إليه، فهو مبلغ وشارح لذلك. ثم إن سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية والتعليم يلمسه الباحث بشكل واضح، وهو بذلك يوضح لنا أسس تفهيم الناس، وتيسير المعلومات لهم بطرق شتى.

ونظرا لما لمسته في أكثر الجهات من خلط بين مدلولي التيسير والتشديد في العملية التعليمية، وجدت نفسي مدفوعا إلى دراسة هذا الموضوع.

وقد جعلته في تمهيد ومبحثين وتوصيات.

أما المبحث الأول، فهو يعالج مدلول التيسير في الدراسات الحديثية.

وأما المبحث الثاني، فإنه يدرس مدلول التفهيم في الدراسات الحديثية.

وما التوفيق إلا بالله، عليه توكلت، وهو نعم الوكيل.

المبحث الأول: مدلول التيسير في الدراسات الحديثية:

المطلب الأول: تحديد دلالة التيسير:

التيسير من اليُسْر، وهو ضدُّ العُسْر الذي يدل على الضيق والشدة[1]، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} الشرح: ٦، وهو واضح أيضا في قول حسان بن ثابت[2]:

وإنْ نابَ أمْرٌ لم يقوموا بِحَمْدِهِ **** فمَنْ عنده تَيْسِيرُ ما يَتَشَدَّدُ

والتيسير، بهذا المعنى، مدلوله عام، بمعنى جعل الأمر سهلا ومتحملا، سواء تعلقت المسألة بالأحكام أم بالمعرفة، كما نجده محمودا في كل شيء غالبا إلا ما جاء الاستثناء فيه، والشدة مرغوب عنها إلا في المواطن المستثناة.

ونحن في ذلك نفرق بين التيسير والتشدد والرفق والتساهل:

فإذا كان التيسير هو جعل الأمر سهلا، والتشدد هو جعل الأمر صعبا لا يتحمل، فإن الرفق ضد الغلظة، وفيه استعمال اللين والقول الجميل:

قال الله تعالى: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{43} فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى{44}} طه: ٤٣ – ٤٤.

فهذا الله سبحانه وتعالى يأمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون الطاغية، ومخاطبَتَه بالرفق، مع أنه مشرك بالخالق عز وجل.

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "دخل رَهْطٌ من الْيَهُودِ على رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. قالت عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا

---

[1]– ابن منظور: لسان العرب (مادة: عسر) 563/4.

[2]– ديوان حسان بن ثابت (بشرح عبدالرحمن البرقوقي)، ص: 92.

فقلت: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قالت: فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الْأَمْرِ كُلِّه. فقلت: يا رَسُولَ الله، أو لم تَسْمَعْ ما قالوا؟! قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: قد قلت وَعَلَيْكُمْ"[3].

وعنها أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ في شَيْءٍ إلا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ من شَيْءٍ إلا شَانَهُ"[4].

وعنها رضي الله عنها أيضا "أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: يا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويعطي على الرِّفْقِ ما لَا يعطي على الْعُنْفِ وما لَا يعطي على ما سِوَاهُ"[5].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه في حديث تخييره عليه السلام زوجاته: "فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فقال: يا عَائِشَةُ، إني أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فيه حتى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ. قالت: وما هو يا رَسُولَ اللَّه؟ فَتَلَا عليها الْآيَةَ، قالت: أَفِيكَ يا رَسُولَ اللَّه أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟! بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً من نِسَائِكَ بِالَّذِي قلت. قال: لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إلا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللَّهَ لم يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا"[6].

أما التساهل، فهو التسامح[7]، وهو محمود عندما يكون صفة متعلقة باللين بين الناس، ومذموم عندما يكون صفة متعلقة بالاستسهال في البحث وإصدار الأحكام والتعليم، ففي هذه الحال تنتشر المغالطات والأفكار غير السوية، والتساهل في العلم يؤدي إلى خلق مجتمع مشلول، عالة على غيره، لا يقوم على أعمدة سليمة، بل هو على شفا جرف هار.

لأجل ما ذكرنا، نجد المحدثين يتكلمون فيمن كان سبيله التساهل في الرواية، فهذا الخطيب البغدادي يبوب في ذلك: "باب ترك الاحتجاج بمن عُرف بالتساهل في رواية الحديث"، وقال في عبدالله بن لهيعة أنه "سيء الحفظ، واحترقت كتبه، وكان يتساهل في الأخذ، وأي كتاب جاؤوا به حدَّث منه، فمن هناك كثُرت المناكير في حديثه"[8]، ويضعِّفُ حالَ من تساهل في الرواية، قال في ذلك: "إذا كان الراوي صحيحَ السَّماع، غيرَ أنه مُتساهلٌ في الرواية، ومعروف بالغفلة، فالسماعُ منه جائزٌ غيرَ أنه مكروهٌ، ويُضَعَّفُ حالُه بما ذَكرنا"[9]. وهكذا، ضعَّفَ ابنُ النَّجّار "يونس بن يحيى الهاشمي القصار"، وفسَّر سبب تضعيفه بأنه متساهل في الرواية[10]. وتكلَّم ابنُ الملقن في صنيع ابن السّكن في كتابه (السنن الصحاح المأثورة) بأنه متساهل في هذا الكتاب[11].

من هذا كله يُعلم أن الشريعة السمحاء جاءت بالرفق في التعامل، وفي التيسير في

3– متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله 2242/5 ح 5678، وكتاب الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام 2308/5 ح 5901، وكتاب الدعوات ...، باب الدعاء على المشركين... 2349/5 ح 6032، وكتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرَّض الذمِّي وغيره بسبِّ النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يصرِّح، نحو قوله: "السام عليكم" 2539/6 ح 6528، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يردُّ عليهم 1706/4 ح 2165.

4– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق 2004/4 ح 2594.

5– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق 2003/4 ح 2593.

6– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية 1104/2 ح 1478.

7– ابن منظور: لسان العرب (مادة: سهل) 349/11.

8– الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص: 152.

9– الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 140/1.

10– الذهبي: المغني في الضعفاء 767/2.

11– ابن الملقن: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير 444/3، و 522.

غالب الأحوال، والتشدد إنما هو أمر عارض في أحوال مخصوصة، نقيضُه التساهل الذي لا يُعتبر خصلةً محمودة في العلم والدين، وبالرفق يُحَبِّبُ العالمُ العِلْمَ لطلابه، وبه تتبني العلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع.

وقد سلك العلماء جملةً مَسْلَكَ التيسير، بدءا بالتعليم بالتدرج حتى يتمكن منه طالب العلم، وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "تنبيهٌ لأهل العلم على تربية الأمة كما يُرَبِّي الوالدُ ولدَه، فيربونهم بالتدريج والتَّرَقِّي من صغار العِلْم إلى كِباره، وتحميلهم منه ما يُطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال الغذاء إليه، فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير"[12].

ونظرا لما في الرفق من أهمية في نشر المعرفة وتحبيبها إلى الطلاب، نجد العلماء يتواصون بحسن معاملتهم، وهذا الربيع بن سليمان كتَبَ إليه أبو يعقوب البويطي[13]: "أن اصبِرْ نفسَك للغرباء، وأحسِنْ خُلُقَك لأهل حلقَتِك، فإني لم أزل أسمع الشافعي يُكثر أن يتمثَّل بهذا البيت:

أُهين لهم نفسي لكي يكرمونها **** ولن تُكرَمُ النفسُ التي لا تُهينها"

المطلب الثاني: صور التيسير:

إن المتأمل في هذا الموضوع يلمس صورا للتيسير:

أ- **التيسير في الأحكام الشرعية،** وبذلك لا يكلّف المسلم ما هو فوق طاقته، قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} البقرة: ٢٨٦، وبنى الفقهاء على ذلك قاعدة فقهية جليلة مستنبطة من مجموع النصوص القرآنية والحديثية: "المشقة تجلب التيسير"[14]، لكن هذا التيسير ليس على إطلاقه، بل هو في إطار المقاصد الكلية للشرع، فقد يكون التشديد هو المصلحة للفرد والمجتمع، مثله مثل العلاج الذي قد يقتضي بتر رِجْلٍ، فهو وإن كان قاسيا شديدا على الفرد، إلا أن بقاءه على قيد الحياة يتطلب ذلك.

ب- **التيسير في التعليم.** وبناءً على ذلك، نجد العلماء ينهجونه في التربية والتعليم، بهدف تحقيق تكوين رصين، يُفهم من ذلك أنهم لم يقصدوا بالتيسير التهاون في الجانب العلمي، واعتبار عدم المطالبة بالواجبات من باب التيسير، وإلا فإن العلم إذا تم التهاون فيه بناء على معتقد فاسد، فإنه سيضيع، ويخلق أفرادا ومجتمعات مشلولة، وهذا يعتبر تقصيرا شديدا ممن يفعل ذلك تجاه الفرد والجماعة على حد سواء، وإنما المقصود

---

[12]- الفيروزآبادي: مفتاح دار السعادة، ص: 63.

[13]- أخرجه الربيع في مسند الشافعي، ص: 375، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 148/9، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 302/14، والبيهقي في السنن الكبرى، المدخل إلى السنن الكبرى، باب تقريب الفتيان من طلاب العلم وترغيبهم في التعلم 376/1.

[14]- للعز بن عبدالسلام، أبي محمد السلمي كلام نفيس في الموضوع، فقد مايز بين نوعين من المشقة: الأولى مشقة لا تنفك عنها العبادة غالبا، أي أنه لا يمكن تأدية العبادة بدونها، كمشقة الوضوء والغسل مع شدة البرد، ومشقة الصوم في شدة الحر وطول النهار... والثانية مشقة تنفك عنها العبادة غالبا، أي أن الحالة الغالبة في العبادات تؤدى من دون تحقق هذه المشقة معها، وهي على أنواع ثلاثة: 1- مشقة عظيمة فادحة، كالخوف على النفس والأطراف، وهذه المشقة موجبة للتخفيف. 2- مشقة خفيفة، كأدنى وجع في الإصبع، وهذه المشقة لا التفات إليها. 3- مشاق واقعة بين المشقتين السابقتين، تختلف في الخفة والشدة، فما كان منها قريبا إلى المشقة الأولى وجب التخفيف، وما كان منها قريبا إلى المشقة الثانية لم يوجب ذلك. قواعد الأحكام في مصالح الأنام 9/2، ويراجع: الدكتور عبدالعزيز محمد عزام: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، ص: 25-26، والقواعد الفقهية، له أيضا، ص: 114-115.

بذلك الانتقال بالطلاب في العلم من المفرد إلى المركَّب، ومن البسيط إلى المعقَّد، ومن المحسوس إلى المجرَّد وفق تدرُّجٍ معقول في كل التخصصات.

ويدخل في هذا الباب:

1- تيسير العلم للطلاب الذين لا يتقنون اللغة العربية باستعمال أسلوب سهل، مع تشكيل النصوص، وعدم التسرع في الانتقال من معلومة إلى أخرى إلا بعد التأكد من كونها بلغت أذهانهم، ولا بأس من إعادتها أكثر من مرة عند اللزوم، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدَّثَ أعاد ثلاثا، فقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تُفهَم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلّم عليهم ثلاثا"[15].

2- استخدام البرامج الحديثة في البحث عن المعلومات الحديثية وغيرها، على ألا يقف الأمر عند حدودها، بل لابد من العودة إلى المصادر لكثرة وقوع الأخطاء في مثل هذه البرامج، والرجوع إلى المشايخ لمزيد من الاستيعاب والفهم.

3- عدم إملال الطلاب، فإن القلوب تمل، ولذلك نجد أبا خالد الوالي يقول: "كنا نجالس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيتناشدون الأشعار، ويتذاكرون أيامهم في الجاهلية"[16]، وعن عمر بن عبدالعزيز قال: "تحدثوا بكتاب الله، وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال حسن جميل"[17].

ت- **التيسير في التصنيف**. وقد سلكوا في هذا الشأن طرقا، منها:

1- تقريب الكتاب إلى الطلاب بحيث يسهل عليهم التعامل معه، وذلك ببيان المنهج المتبع في التأليف، واتباع بعض الأساليب في الكتابة مثل الترتيب، ليدرك الطالب كيفية التعامل مع الكتاب دون عناء، كما فعل ابن ماكولا في كتابه، فقد قال: "... فبدأت به محتسبا بعمله وراجيا الثواب بتلخيصه، إذ كان أكبر عون لطالب العلم على معرفة ما يشتبه عليه من الأسماء والأنساب والألقاب التي يحتاج إلى قراءتها وكتابتها. ورتبته على حروف المعجم، وجعلت كل حرف أيضا على حروف المعجم، وبدأت في كل باب بذكر من اسمه موافق لترجمته، ثم بمن كنيته كذلك، ثم أتبعته بذكر الآباء والأجداد، وقدمت في كل صنفٍ الصحابةَ، وأتبعتهم بالتابعين وتابعيهم إن كانوا في ذلك الباب، وإلا الأقدم فالأقدم من الرواة، ثم جعلت بعد ذكر من له رواية: الشعراء والأمراء والأشراف في الإسلام والجاهلية، وكل من له ذِكْرٌ في خبر من الرجال والنساء، وختمت كل حرف بمشتبه النسبة منه ليقرُبَ إدراكُ ما يُطلبُ فيه، ويسهُلَ على مبتغيه..."[18].

2- تقريب الحديث النبوي للمشتغلين به، فقد جاء عند ابن حجر في كلامه عن تصانيف المحدثين: "... فإن الاشتغال بالعلم – خصوصا الحديث النبوي –

---

[15]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، بَاب من أَعَادَ الحديث ثَلَاثًا لِيُفْهَمَ عنه، فقال: "ألا وَقَوْلُ الزُّورِ! فما زال يكرِّرها"، وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هل بلّغت ثلاثا" 48/1 ح 95.

[16]- ابن عبدالبر القرطبي، أبو عمر يوسف النمري: جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله 105/1، دار الكتب العلمية- بيروت- 1389هـ/1978م.

[17]- ابن عبدالبر: بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس 116/1، ويراجع أ.د. المكي اقلاينة: النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، ص: 29 فما بعدها.

[18]- ابن ماكولا، الحافظ الأمير: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب 2/1.

من أفضل القربات. وقد جمع أئمتنا منه الشتات على المسانيد والأبواب المُرَتَّبات، فرأيت جمْعَ جميع ما وقعت عليه من ذلك في كتاب واحد ليسهُلَ الكشْفُ منه على أولي الرَّغبات، ثم عدلت إلى جمع الأحاديث الزائدة على الكتب المشهورات في الكتب المسندات، وعُنيت بالمشهورات..."[19].

3- الاختصار بهدف تسهيل تحصيل العلم وحمل الكتاب في الأسفار، وفي ذلك قال العراقي في مقدمة كتابه المغني: "... وبعد، فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث (إحياء علوم الدين) في سنة إحدى وخمسين، تعذَّر الوقوفُ على بعض أحاديثه، فأخَّرتُ تبييضه إلى سنة ستين، فظفرت بكثير مما عزب عني علمه، ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه، وأنا مع ذلك متباطئٌ في إكماله، غير متعرِّض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه. وتكرر السؤال من جماعة في إكماله، فأحببتُ وبادرت إليه، ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار..."[20].

4- اجتناب النقصان والتكرير، وهو ما أشار إليه الإمام مسلم عندما تكلم عن سبب تأليفه الصحيح بطلب من أحدهم، فقال: "... فَأَرَدْتَ - أَرْشَدَكَ الله - أَنْ تُوَقَّفَ على جُمْلَتِهَا مُؤَلَّفَةً مُحْصَاةً، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أُلَخِّصَهَا لك في التَّأْلِيفِ بِلَا تَكْرَارٍ يَكْثُرُ، فإن ذلك - زَعَمْتَ - مِمَّا يَشْغَلُكَ عمّا له قَصَدْتَ من التَّفَهُّمِ فيها وَالِاسْتِنْبَاطِ منها. وَلِلَّذِي سَأَلْتَ - أَكْرَمَكَ الله - حين رَجَعْتُ إلى تَدَبُّرِهِ وما تؤول بِهِ الْحَالُ، إن شَاءَ الله، عَاقِبَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَمَنْفَعَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَظَنَنْتُ حين سَأَلْتَنِي تَجَشُّمَ ذلك أَنْ لو عُزِمَ لي عليه وَقُضِيَ لي تَمَامُهُ كان أَوَّلُ من يُصِيبُهُ نَفْعُ ذلك إِيَّايَ خَاصَّةً قبل غَيْرِي من الناس لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ يَطُولُ بِذِكْرِهَا الْوَصْفُ، إلا أَنَّ جُمْلَةَ ذلك أَنَّ ضَبْطَ الْقَلِيلِ من هذا الشأن وَإِتْقَانَهُ أَيْسَرُ عَلَى الْمَرْءِ من مُعَالَجَةِ الْكَثِيرِ منه، ولاسِيَّمَا عِنْدَ من لَا تَمْيِيزَ عِنْدَهُ من الْعَوَامِّ إلا بِأَنْ يُوَقِّفَهُ على التَّمْيِيزِ غَيْرُهُ. فإذا كان الْأَمْرُ في هذا كما وَصَفْنَا، فَالْقَصْدُ منه إلى الصَّحِيحِ الْقَلِيلِ أَوْلَى بِهِمْ مِنَ ازْدِيَادِ السَّقِيمِ"[21].

وأشار إلى ذلك أيضا ابن الديبع الشيباني عند كلامه عن (جامع الأصول في أحاديث الرسول) لابن الجزري، وتجريده لرزين، إذ قال: "وقد نظرت في كل من الجامع وتجريده، وشاهدت حُسن وضع كل منهما وتمهيده، فرأيت كلاً من مؤلفيهما قد رقَّم اسم الصحابي الراوي للحديث في حاشية الكتاب، ورمز عليه لمن اخرجهُ من السنّة برموز اختلطت واختبطت على أكثر الكُتّاب، فحصل فيها التقديم والتأخير، والنقصان والتكرير، حتى كثُر في ذلك العناء، ولم يحصل لأكثر الطلاب به غناء، وقلَّ التذاذُ قارئ كلٍّ منهما وسامعه، وعسُر انتفاع مُحَصِّل التجريد ومُطالعه، فعزمت بعد استخارة الله تعالى على تيسيره للمنتفعين رغبة في إحياء السنة النبوية، ومحبة لاقتفاء الآثار الشريفة المحمدية، وصدَّرت كل حديث منه باسم صحابيه الذي رواه، وختمته بمن خرّجه من الأئمة الستة وحواه، ودمجت ذلك بين متون الأحاديث ليؤمن به من الغلط والاشتباه، وتقبله الطّباع ولا

---

[19]- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية 18/2.
[20]- العراقي، أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم بن الحسين: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار 3/1.
[21]- خطبة صحيح مسلم 3/1-4.

تأباه... وسميته (تيسير الوصول إلى جامع الأصول)"[22].

5- جمع المتفرِّق في كتاب، فهذا العراقي في معرض بيانه سبب تأليفه (كتاب المستفاد من مبهمات المتن والإسناد) ذكر الصعوبة التي يجدها الباحث في مصنفات مَنْ ألّف في ذلك مثل كُتب أبي محمد عبدالغني بن سعيد والخطيب البغدادي وابن بشكوال إلى أن قال: "... فوفقني الله تعالى، وبه الاستعانة، إلى جمع هذه الكتب في مصنف واحد، وترتيبه على الأبواب الفقهية ليسهل الكشف منه على من أراد ذلك..."[23].

6- إعادة ترتيب الكتاب بطريقة تسهل الاستفادة منه. فهذا ابن بلبان لما أراد تبيين سبب تأليفه الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، قال بعد أن رفع من شأنه: "... لكنه لبديع صنعه، ومنيع وضعه، قد عز جانبه، فكثر مجانبه، تعسر اقتناص شوارده، فتعذر الاقتباس من فوائده وموارده، فرأيت أن أتسبب لتقريبه، وأتقرب إلى الله بتهذيبه وترتيبه، وأسهله على طلابه..."[24].

7- إفراد أسماء المحدثين الذين لهم خصيصة معينة في كتاب، مع اختصار ترجمتهم، وفي ذلك قال سبط ابن العجمي في مقدمة كتابه عن أسماء المدلسين: "أما بعد، فهذا تعليق في أسماء المدلسين كنت جمعته قديما في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة في تعليق لي على سيرة أبي الفتح اليعمري، ثم في تعليق لي على صحيح البخاري، ثم إني نقلتهم إلى هذا المؤلف المفرد، وأسماؤهم تحتمل مجلدا إذا ذكرت تراجمهم، ولكني اختصرتها الآن جدا ليسهل تحصيلهم..."[25].

8- جمع قواعد المحدثين في كتاب، وقد كان أول من فعل ذلك حسب ما نعلم: ابن الصلاح (ت 643 هـ) في مقدمته. وعلماء الحديث بصنيعهم هذا كانوا أسبق من علماء القرآن عندما فكروا في جمع قواعد علوم القرآن، إذ لم يبدؤوا بذلك إلا مع بدر الدين الزركشي (ت 794 هـ) في كتابه (البرهان في علوم القرآن)، أما الكتابة في كل علم مستقل، فهذه مسألة أخرى، وكان التأليف فيها قبلهما بزمان، إلا أن مقصودنا بهذا تيسير علماء الحديث علم الحديث على طلابه بجمع قواعده في كتاب مستقل، لا الاكتفاء بالتأليف في كل علم مستقل عن الثاني في قضية من القضايا الجزئية، لأن ذلك يتطلب وقتا طويلة للإحاطة بالعلم، بينما جمع هذه القواعد في مكان واحد يُيَسِّر على الطلاب معرفة منهج المحدثين جملة.

9- تسهيل الحفظ، وربما الفهم أيضا. وفي هذا الصدد، لما قال ابن حجر العسقلاني في المصنفات في علوم الحديث التي بُسطت: "واختُصرت ليتيسَّرَ فهمُها"، قال ملا علي القاري: "الظاهرُ أنْ يقول: (حِفْظُها)، لكنَّ لمّا كان الاختصارُ سبباً لتيسير الحِفْظ، وهو يستلزم تيسيرَ الفهم غالباً - لأن التطويلَ يُشتِّت الفكرَ ويُصَعِّب فهمَ المرادِ، والمقصودُ الحقيقي هو الفهم - وُضِع مَوْضِعَ الحفظ، قال مُلاّ قاسم الحنفي - تلميذ المصنف-: أوردتُ عن المُصنِّف أن الاختصارَ لتيسيرِ الحِفْظ، لا لتيسير الفهم! فأفاد أنَّ المُراد فَهْمٌ مَتِينٌ لا يزول سريعاً، فإنها إذا اختُصِرت سَهُل حفظُها، وحينئذٍ يَسْهُل فهمُها

---

[22]- ابن الديبع الشيباني، عبدالرحمن بن علي: تيسير الوصول إلى جامع الأصول 1/3-4.
1- العراقي: كتاب المستفاد من مبهمات المتن والإسناد 1/92- 93.
2- ابن بلبان: الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 1/95 - 96.
[25]- سبط ابن العجمي: التبيين لأسماء المدلسين، ص: 11.

بسبب حفظِها، ولا كذلك المَبْسوطَةُ، فإنه إذا وصل إلى الآخر قد يفضل على الأول"[26].

وقد اتضح لنا أن التيسير قد يكون بالاختصار، وقد يكون بجمع قواعد العلم في كتاب مستقل، وقد يكون بالشرح أيضا لتوضيح مستغلق الكلام، والصور تتعدد كما تبين لنا وتتجدد أيضا بحسب الحاجة والظروف.

نخرج من هذا كله أن علماء الحديث، منذ وقت مبكّر، أحسوا بالحاجة إلى التيسير لتقريب المعرفة، فليس من الغريب أن نتكلم عن الحاجة إلى التيسير في تدريس الدراسات الإسلامية والحديثية بشكل أخص حتى يتمكن الطالب من الإحاطة بالعلم من جهة، وفهمه من جهة ثانية. وهذا لا يعني أن العلماء في بقية التخصصات لم يعتنوا بهذا الأمر، لكن الموضوع خاص بالجانب الحديثي، فأحببت التركيز عليه.

المبحث الثاني: مدلول التفهيم في الدراسات الحديثية:

يعتبر التفهيم أهم هدف تبتغيه العملية التعليمية بغرض إيجاد الفهم لدى الطالب الذي به يستطيع التقدم في العلم والمعرفة، أما مجرد التلقين من دون أن يحصل استيعابٌ للمادة العلمية، فإنه لا يخلق في النفس أي تغيير أو إصلاح للفكر.

والفهم شرط التكليف، لذا، فإن مكانة الفرد رهينة به. وقد جاء عن ابن عباس في تفسير الحكمة في قوله تعالى: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } ص: ٢٠، قال: أعْطِيَ الفَهْمَ[27]، وعن إبراهيم فيما رواه عنه الطبري في تفسير قوله تعالى: {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} البقرة: ٢٦٩، قال: الحكمة هي الفهم[28].

وفي رسالة عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري في القضاء: "...الفَهْمَ الفهمَ فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في القرآن والسنة، فتعرَّف الأمثالَ والأشباه ثم قِس الأمور عند ذلك..."[29]، وعَنْوَنَ البخاري في صحيحه في كتاب العلم: "باب الفهم في العلم"[30].

المطلب الأول: مدلول الفهم والتفهيم وأهميتهما:

عرَّف بدر الدين العيني الفهم بأنه "جَوْدَةُ الذِّهن، والذِّهْنُ قوَّة تقتنص الصور والمعاني، وتشمل الإدراكات العقلية والحسية"[31].

وهو منزلة بين تلقي العلم والحفظ، وفي ذلك روى البيهقي عن سفيان بن عيينة قوله: "أوَّلُ العلم: الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[32].

ومن كان ذا فهم كان ممدوحا عند العلماء لأنه يفقه ما يسمع، ويظهر أثره في العمل، فهذا أبو نصر الكلاباذي الكاتب، وهو من الحفاظ، قال فيه أبو عبدالله الحاكم:

---

[26]– القاري، ملا علي: شرح نخبة الفكر، ص: 143–144.
[27]– تفسير ابن أبي حاتم 10 /3238 .
[28]– الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 90/3.
[29]– سنن الدارقطني 206/4 ح 15 و207/4 ح 16، وسنن البيهقي الكبرى 115/10 ح 20134 و10/ 150 ح 30324.
[30]– صحيح البخاري، كتاب العلم 39/1.
[31]– العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري 52/2، ذكر ذلك في معرض رده على الكرماني عندما قال:"المراد من العلم المعلوم، كأنه قال: (باب إدراك المعلومات)"، البخاري بشرح الكرماني 39/2.
[32]– البيهقي: شعب الإيمان 289/2 ح 1797.

"حسن الفهم والمعرفة..."[33]، وقال الذهبي في الإمام محمد بن مخلد بن حفص الحافظ: "كتب ما لا يوصف كثرة، مع الفهم والمعرفة وحسن التصانيف"[34].

ومن نزلت رتبته عن الفهم السليم كان مقدوحا فيه، فهذا عفان بن مسلم أبو عثمان الصغار قال فيه سليمان بن حرب فيما رواه عنه ابن عدي: "... كان بطيئا رديء الحفظ، بطيء الفهم"[35]، وقال ابن النجار في أحمد بن طارق الكركي: "... وقد سمعت منه كثيرا، وكان قليل المعرفة، بعيدا من الفهم، ولكنه صحيح السماع..."[36].

ولازال العلماء يهتمون بجودة الفهم والتفهيم، وصنفوا في ذلك مصنفات عدة تهتم بالسلوك التربوي داخل مجلس العلم حتى يتمكن الطالب من حسن الفهم[37].

بهذا، ندرك أهمية الموضوع في العلوم الشرعية عامة، وفي علوم الحديث خاصة لأنها من أهمها لارتباطها بأمرين اثنين:

1 . المنهج النقلي وما ينبني عليه من الطرق المؤدية إلى فحص الروايات ونقدها بهدف التمييز بين الصحيح والسقيم.

2 . فهم دلالة النص المنقول بغية العمل بمقتضاه وتنزيله على الواقع لكونه تشريعا للمسلمين.

لأجل ما ذكر، بنى العلماء قاعدة جليلة: "إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل".

نظرا لهذه الأهمية التي تكتسيها الدراسات الحديثية، وجبت العناية بها عناية كاملة دراسة وتدريسا وتطبيقا، الأمر الذي جعل علماء الحديث يولونها منذ العهود الأولى نصيبها من الاهتمام لحسن الاستيعاب والفهم والعمل.

لذلك، فإننا نهدف من خلال هذا البحث أساسا إلى إبراز واقع هذه المادة في صفوف الطلاب، والوسائل القمينة بتجاوز العراقيل التي تعوق العملية التعليمية وتيسرها عليهم. وما من شك أن استصعاب الشيء يولد هجره إن لم نقل كراهيته.

وهذا الموضوع شغل ذهني زمنا غير يسير وأنا أحاول تبليغ المادة لطلابي، أو عندما أقف على هفوات في بحوث الدراسات العليا، أو عندما أسمع خطيبا يلقي خطبته يوم الجمعة ممن ليس من أهل هذا الشأن فيحتج بحديث ويعقب عليه بأنه أخرجه ابن الجوزي في موضوعاته، غير متفطن إلى أن هذا الكتاب خاص بالأحاديث المكذوبة.

وهذا الذي حصل من هؤلاء يعود إلى طبيعة التكوين الذي حصلوا عليه، وسوء الفهم لبعض المواضيع ظهر أثرها للعيان. وكثيرا ما كنت أتمثل بما حصل للحافظ أبي عبدالله الحاكم في بعض تخاريجه لحديث إسماعيل بن عياش عن مطعم بن المقدام الصنعاني كما نبه إليه ابن القيسراني في معرض بيانه سبب تأليفه كتاب (المؤتلف والمختلف)، إذ قال عقيبه: "تفرَّد به الشاميون عن اليمانيين"، فاعتقد أن مطعما هذا من صنعاء اليمن، وإنما هو من صنعاء، قرية بباب دمشق، نزلها جماعة من الصحابة، وفيه

---

[33]– الذهبي: تذكرة الحفاظ 1027/3 تر 956.
[34]– الذهبي: سير أعلام النبلاء 256/15.
[35]- ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال 384/5 تر 1550.
[36]- ابن حجر: لسان الميزان 188/1 تر 579.
[37]- يراجع: ابن عبدالبر: بهجة المجالس، والخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، وابن جماعة الكناني: تذكرة السامع، وأ.د. المكي اقلاينة: النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى...

قال أبو عمرو الأوزاعي: "ما أصيب أهل الشام بأعظم من مصيبتهم بالمطعم بن المقداد الصنعاني"[38]. وهذا الذي حصل للحاكم لا يرجع إلى قلة علمه، بل إلى مجرد الوهم، ومن يعرى عنه؟! ومعرفة أنساب الرجال من أنواع علوم الحديث التي لا غنى للمحدث عنها، وتكفيه غفلة عن هذا الأمر ليجرح ثقة أو يوثق مجروحا!

أفلا يعتبر هذا كافيا لإمعان النظر في كيفية تبليغ علوم الحديث التي تمثل المنهج الإسلامي في المحافظة على سلامة الحديث وحسن فهمه؟! وهو منهج تأثرت به باقي الميادين من تفسير وفقه وأصول وعقيدة وأدب ولغة ونحو وتاريخ... وهذا المجتمع الغربي يعمل على تيسير المعرفة ونشرها في كتب مخصصة لذلك[39]، والذي يعود إلى عمل علماء السلف رحمهم الله، يجدهم لم يقصروا في هذا الباب، وجهدوا في تيسير علوم الحديث على الطالبين، ونشره في مجالس العلم وإن كانت للمتفرغين لهذا الشأن مجالس خاصة، وألفوا في ذلك ما تزخر به المكتبة الإسلامية عامة، والحديثية خاصة. فلا غرابة عندما نجد المحدثين يولعون باختصار المبسوطات وجمع قواعد العلم من بطون المصنفات تيسيرا على طلاب العلم لتعذر وقوفهم على كل ذلك دفعة واحدة من خلال هذه الكتب التي صنفت في كل نوع من أنواع علوم الحديث. وفي كل زمان تظهر حاجة تستدعي عناية خاصة من لدن أهل العلم. وزماننا هذا، يدفعنا دفعا إلى إعادة النظر في كيفية نقل المعرفة عموما، وعلوم الحديث التي هي من أصعب العلوم بشكل خاص.

نظرا لأهمية المسألة، نحن في حاجة إلى رصد جميع مكونات العملية التعليمية، والاستفادة من عمل السلف في الجانب التعليمي، واقتراح الحلول الممكنة للتخفيف من حدة مشكلة الفهم والتفهيم.

المطلب الثاني: معوقات الفهم لدى الطالب:

يعتبر الطالب أحد مكونات العملية التعليمية، وفي غياب مشاركته الفعالة لا يمكن الحديث عن الفهم والتفهيم، لأن ذلك لا يدرك إلا بعد ظهور أثر الفعل التعليمي.

ولكي يتفاعل وينفعل مع هذه العملية، يفترض أن يكون على مستوى معين من الإدراك الذي به يفهم نسبة مما يقدم إليه ويستطيع أن يعبر عنه بأسلوب واضح وسلس يفهم منه المراد.

فإلى أي حد يستطيع الطالب اليوم أن يفعل ذلك في ظل التكوين العام الذي خضع له؟

ثم إلى أي حد يظهر تجاوبه مع مادة علوم الحديث خاصة؟

للإجابة عن هذين السؤالين أستلهم أولا تجربتي في التعليم العالي بالمغرب والإمارات وسلطنة بروناي دار السلام، وأستنير بما لمسته بنفسي فيما يخص طلاب جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية، وهي على الشكل الآتي:

* ضعف التكوين العام في جميع المواد، بحيث لا يمكن حصره في مادة دون أخرى. لأجل هذا، فإن المشكل ليس خاصا بعلوم الحديث فقط، بل هو عام في جميع

---

[38]– ابن القيسراني: المؤتلف والمختلف، المعروف بالأنساب المتفقة في الخط، المتماثلة في النقط والضبط، ص: 23 – 24.

[39]- راجع سلسلة QUE SAIS - JE ?

المواد ويتفاوت من جهة إلى أخرى. وهذا لا يمنع وجود طلبة متميزين، إلا أن الحكم للأغلب.

* ضعف شديد في المستوى اللغوي والنحوي والإملائي، مرده إلى كون الطلاب ليسوا عربا في سلطنة بروناي، فاللغة العربية تعتبر عندهم لغة أجنبية لكونها ليست اللغة الرسمية في البلد[40]، ولم يتلق كل الطلاب تعليما عربيا، ومن درس منهم في بعض المدارس العربية فإنها تفتقر غالبا إلى المنهج السليم والمدرسين الأكفاء، وأغلبية المدرسين من غير العرب ممن لا يتقنون العربية ولا يلتزمون العربية الفصحى في التدريس، كما أنها لا تعتمد على مهارة المحادثة والحوار، وإنما يتم الاكتفاء بالحفظ والتلقين، ومن لم يكمل تعليمه في المدارس العليا العربية، فإنه ينسى ما تلقاه من تعليم في العربية، ثم إنهم لا يتعاملون بها، وإنما يعمدون إلى استعمال لغتهم الوطنية المالايوية، وهذا يؤدي إلى عدم تطوير قدراتهم في اللغة العربية[41]. وأثر الضعف اللغوي في فهم الطالب جلي لا يمارى، إذ باللغة يفهم الخطاب. ولأجل ذلك قال جلال الدين السيوطي في معرض كلامه عن العلوم التي حباه الله بها: "...مع ما أمدني الله تعالى به من العلوم كالتفسير الذي يطلع على فهم الكتاب العزيز، وعلومه التي دونتها ولم أسبق إلى تحريرها الوجيز، والفقه الذي من جهله فأنى له الرفعة والتميز، واللغة التي عليها مدار فهم السنة والقرآن، والنحو الذي يفتضح فاقده بكثرة الزلل – ولا يصلح الحديث للحان – إلى غير ذلك من علوم المعاني والبيان التي لبلاغة الكتاب والحديث تبيان..."[42].

* اقتصار الطلبة في الغالب الأعم على الكتاب المقرر وعدم محاولتهم توسيع مداركهم بقراءة المصادر والتعرف عليها، وهذا يؤثر في مستواهم الذي لا يخرج عن إطاره. والأصل في ذلك تشجيعهم على هذا الأمر سيرا على نهج المحدثين وغيرهم في تعديد الشيوخ واعتبار ذلك منهجا تعليميا يعاب على من عري عنهم كما نبه إليه الإمام الشاطبي عند محاولته تفسير سبب سلاطة لسان ابن حزم رحمه الله[43]. والعودة إلى الكتب الآن، وإن كانت لا تعوض الشيوخ، فإنها تقلل من حدّة هذا الضعف الذي يعاني منه الطلبة.

* إلى جانب الاقتصار على الكتاب، يتم التعويل على اختصار له قد يقوم به أحد الطلبة مما يزيد الطين بلة. وليته إذ اختصر صحح ما كتب، ومن يتغيب يعول على ما كتب زميله من شرح الأستاذ ويطمئن إليه مع أنه قد يكتب فهما غير سديد، أو يصحف، أو يخطئ في ضبط الكلمة... فتنتشر الأخطاء وتصبح حالة عامة، وهو في ضبط

---

[40]– استعمال العربية في سلطنة بروناي يعود إلى قرن من الزمن تقريبا اعتمادا على وثيقة خطبة الجمعة محفوظة في مركز الدعوة الإسلامية ترجع إلى عصر السلطان عمر علي سيف الدين الثاني (1829–1852) والسلطان عبدالمومن (1852–1885)، لكنها لم تكن مستعملا رسميا، وإنما تستعمل في المناسبا الخاصة بالأذكار والنطق بالشهادتين والنية، ثم ظهرت لاحقا طائفة تعنى باللغة العربية في البلد، ونشأت مدارس تعنى باللغة العربية. فغيران حاجة سليمة بنت فغيران حاج شهاب الدين: تعليم اللغة العربية في سلطنة بروني دار السلام: التحديات والتوقعات 1/359–371. بحث تم تقديمه في المؤتمر الدولي للغة العربية بعنوان: "اللغة العربية بين الانقراض والتطور: التحديات والتوقعات" جامعة الأزهر الإندونيسية– جاكرتا 22–24 يوليوز 2010.

[41]– الدكتور كمال عبدالعزيز إبراهيم: تجربة بروناي دار السلام في تعليم اللغة العربية، وجهود جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية لتطوير هذه التجربة 1/372–384. بحث تم تقديمه في المؤتمر الدولي للغة العربية بعنوان: "اللغة العربية بين الانقراض والتطور: التحديات والتوقعات" جامعة الأزهر الإندونيسية– جاكرتا 22–24 يوليوز 2010.

[42]– السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي 1/39.

[43]– الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة 1/ 93 – 95، وانظر أ.د. المكي اقلاينة: ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية 1/ 69 – 82، والنظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، ص: 83 – 84.

المصطلحات الحديثية أفظع وأكثر لأنه ليس لديه بها أنس. ورحم الله وكيع بن الجراح، فقد كان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت: (من الخفيف)[44]:

خلق الله للحديث رجالا **** ورجالا لآفة التصحيف

ومعلوم أن العلم بأسماء الرواة وضبطها من أنواع علوم الحديث مما يؤخذ مشافهة عن الشيوخ، وقد صنف فيه جلة من العلماء مما لا يدرك بالاعتماد على المجهود الشخصي والقراءة الذاتية.

* عدم مراجعتهم الأساتذة في المكتب للاستفسار عما لم يتم فهمه، حياء منهم. والحياء وإن كان من الإيمان، لكنه لا حياء في العلم، فالذي يستحي في العلم لا يتعلم أبدا.

المطلب الثالث: معوقات التفهيم لدى الأستاذ:

* يتحمل الأستاذ قسطا من المسؤولية حال التقصير في التفهيم وتبليغ المادة على وجهها لأسباب تعود إلى مدى خبرته بالتدريس، وتمكنه من المادة، وتجاوبه مع طلابه. ولا شك أن خبرة الأستاذ وحنكته تؤهلانه لتقديم المادة العلمية على أحسن وجه. لذا، فإن المستويات التي يعاني فيها الطلبة من تكوين ضعيف يحتاجون أكثر من غيرهم إلى أستاذ محنك، على أنه لا يملك خاتم سيدنا سليمان، ولكنه سيعمل جهده للتخفيف من حدة المشكلة.

* والالتزام باللغة العربية من آكد الواجبات التي يجب أن يلتزم بها، يضاف إلى ذلك أن يكون متخصصا في المادة التي يدرسها، والعيب الذي يؤثر في التعليم هو إسناد المواد لغير أصحاب التخصص خصوصا في علوم الحديث.

* يضاف إلى ذلك، نجد الأستاذ في بعض الجهات مثقلا بعدد ساعات العمل، اعتقادا من الجهة المتعاقدة معه أنها بهذه الطريقة تستفيد من خبرته أكثر، والواقع أنه يصبح منهوك القوى وتضعف مردوديته وتكون النتيجة مخالفة لما كان ينتظر منه. والإنسان يبدع في عمله إذا وفرت له الفرصة السانحة لذلك وكذا الظروف الملائمة.

* ويكلف بتدريس كتاب مقرر لا يخرج عنه علما أنه قد لا يفي بالغرض من جهة، ومن جهة ثانية قد تكون فيه أخطاء علمية، أو معلومات قديمة لا تواكب مستجدات البحث العلمي. بهذه الكيفية، لا يستفيد أحد من خبرته وإنما يكون مجرد مردد لأقوال غيره، وبكلمة أخرى مجرد مدرس، بينما المطلوب في الأستاذ أن يكون باحثا. وعلماء الحديث عندما يدرسون كتابا لأحد العلماء لا يقفون عند حدود نقل ما قال، بل يشرحون أقواله ويوجهونها وينكتون عليه ببيان جملة من اللطائف مما يفتح آفاق الطالب ويتعود بذلك على القراءة النقدية الرصينة، وكتابة الطرر والحواشي على الكتاب الذي يدرسه تكون بدورها نواة لكتاب جديد، وقد يعتني بجمع أقوال شيخه ويجعلها في كتاب فيكون بذلك مشاركا وفعالا في العملية التعليمية التي يمثل المحور الأساس فيها. والمكتبة الحديثية زاخرة بمثل هذه الأعمال التي ألمعنا إليها أمثال سؤالات محمد بن عثمان لعلي، وسؤالات أبي عبيد لأبي داود، وسؤالات ابن أبي شيبة، والشروح التي وضعها العلماء على الكتب التي كانوا يدرسونها مع تعليقاتهم عليها نثرا أو شعرا، وما شروح مقدمة ابن الصلاح عنا ببعيدة

---

[44]- الخطيب البغدادي: كتاب تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم 2/1.

والمنظومات التي وضعها العلماء في سبيل ذلك مما لا يجرؤ أحد على الطعن في جودتها، علما بأن لكل زمان رجاله.

* في ظل التقنيات الجديدة، نجد من الأساتذة من لا يرى جدوى من الاستفادة منها. ونحن وإن كنا نرى ضرورة الأخذ من أفواه الشيوخ، إلا أن ذلك لا يمنع من المزاوجة بين الأمرين لما يحققه من فوائد واختزال الوقت في التفهيم. واستعمال الحاسوب في السنة وعلوم الحديث يفيد الطالب بشكل كبير إذا أحسن استعماله دون إسفاف، بحيث يلزمه التعامل المباشر مع المصادر الحديثية إلى جانب ذلك، وإلا كانت معرفته جزئية لا تتعدى ما كان يبحث عنه، بينما يحصل الطالب في بحثه المباشر في الكتب علما وفيرا مما لم يكن لديه في الحسبان. أضف إلى ذلك ما في البرامج الحاسوبية المتعلقة بالدراسات الإسلامية من سقط وتصحيف كثير مما يعيب العمل ويحتاج إلى إعادة النظر في مثل هذه المشاريع التي يبتغى بها خدمة العلم من أجل إخراج عمل متقن. لذلك، أنصح بضرورة عقد اتفاقيات عمل في هذا الباب مع المتخصصين، والتماس مستشارين في هذا المجال.

المطلب الرابع: معوقات الفهم للكتاب المقرر:

في هذا المجال، نذكر جملة من الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن الحاجة ماسة إلى إضافة دماء جديدة في هذا الأمر بإدخال تعديلات على مستوى التأليف:

* إن عامة المصنفات التي ألفت تعاملت مع علوم الحديث على نفس نهج المتقدمين في الأسلوب، وهو عمل قد يكون جيدا لباحثين متميزين، والحال أنه يعرض على طلبة غير متمرسين بالعلم، ويعانون من ضعف عام في الغالب. وهو أمر يعانون منه، خصوصا في الدول غير الناطقة باللغة العربية، وهذا يستدعي استعمال أسلوب سهل ليتمكن الطلاب من فهم المقصود، وكذا تشكيل النصوص حتى يتمكنوا من القراءة السليمة، وفي الوقت ذاته تنضاف إلى رصيدهم اللغوي ثروة هائلة على مستوى المفردات والتراكيب وضبط الكلمات.

* إن الكتب الموجودة في الدراسات الحديثية يغلب عليها عدم تشكيل الكتاب، وهذا إن كان مقبولا في المجتمعات العربية، إلا أنها في الدول غير العربية لا تعتبر كذلك، لأنها لا تيسر على الطلاب سهولة التعرف على المادة العلمية وحسن فهمها.

* إن اعتماد جملة من أصحاب الكتب المعاصرين على مجرد النقل عن المراجع وعدم العودة إلى المصادر، يترتب على ذلك أنه إذا أخطأ أحدهم، انتشر الخطأ عند من ينقل عنه. وإذا علمنا أن القدامى أنفسهم قد وقع جملة منهم في أوهام عند الاعتماد على مجرد النقل، أحسسنا بضرورة العودة إلى المصادر عند توفرها[45].

* كما أن وقوف عامة الكتب المؤلفة في هذا الباب عند حدود الجانب النظري، بينما المستهدف هو الطالب الذي يحتاج إلى فهم المادة بربطها بالجانب التطبيقي، إذ به يفهم المقال.

1- يراجع في هذه المسألة مثلا الوهم الذي حصل لكل من السيوطي والسخاوي واللكنوي والمعاصرين الذين نسبوا لأبي بكر بن العربي العمل بالضعيف مطلقا معتمدين في ذلك على النقل عن ابن حجر العسقلاني، وقد بينا ذلك في بحثنا لنيل دكتوراه الدولة في موضوع: أبو بكر بن العربي وجهوده في الدراسات الحديثية 2/588 -592.

المطلب الخامس: معوقات فهم المنهاج:

إن المنهاج المفروض على الطلبة يجب أن يؤخذ فيه بعين الاعتبار حين وضعه مستواهم العلمي والمدة الزمنية المخصصة له. والملاحظ في هذا الجانب ما يأتي:

* طول المنهاج، فيجد الأستاذ نفسه بين أن يكمله مبتور الأوصال، يمر عليه مر الكرام لأن الوقت لا يسعف، وبين أن يشرح المادة التي على عاتقه تقع مسؤولية تبليغها، فتكون النتيجة سلبية.

* غياب مادة علوم الحديث في السنة الأولى والثالثة في جملة من المؤسسات، حيث تدرس في فصل يتيم ينساها الطالب بعدها ليفاجأ بمادة التخريج في السنة الرابعة مع أنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بها، إذ هي بمثابة أصول الفقه بالنسبة للفقيه، فلما يتعامل الطالب معها يجد نفسه قد نسي كل ما يتعلق بعلوم الحديث، ويجد الأستاذ نفسه في حاجة إلى أن يذكره بذلك مما يؤدي إلى ضياع جزء كبير من الوقت.

* إن مادة علوم الحديث تطبيقية، وهذا يفترض التعامل المكثف مع المكتبة بهدف البحث المباشر في المصادر، ويتطلب وقتا ليس باليسير لتحقيق الأهداف.

مقترحات

فيما يأتي سنحاول تقديم مقترحات عساها تفيد بشكل ولو ضئيل في حل مشكلة الفهم التي تقض مضجع كل مشتغل بالتعليم:

1 ـ **فيما يخص الطالب:**

* إن قبول الطلبة في الكلية يجب أن يتم بناء على اجتياز امتحان يستدل به على مستواهم اللغوي على الأقل، ومن لا يتمكن من اجتيازه بنجاح، تفرض عليه دورة خاصة في اللغة العربية، لأنه لا يعقل أن يدرس مادة لا يعرف ما هو مكتوب فيها. وهذا الخلل الموجود في تكوين الطلاب في اللغة العربية يجب أن تتم معالجته في المستويات الدنيا قبل الوصول إلى الجامعة، وذلك بإسناد تدريس اللغة العربية للمتقنين لها، واعتماد مناهج رصينة تدفع التلاميذ إلى استعمال اللغة، لا مجرد حفظ النصوص!

* تشجيعهم على العودة إلى المصادر والجلوس إلى أهل العلم وإبراز مواهبهم.

* تنظيم دورات تكوينية في الحديث وعلومه، ومسابقات في هذا المجال كما هو الشأن بالنسبة لحفظ القرآن الكريم وتجويده.

2 . **فيما يخص الأستاذ:**

* تنظيم دورات تدريبية على التقنيات الحديثة لمسايرة معطيات العصر، واستعمالها في التدريس.

* إسناد مادة علوم الحديث خاصة لصاحب التخصص.

* التخفيف من عدد ساعات العمل حتى يتمكن الأستاذ من العطاء الجيد، وإلا فإنه سيصبح مجرد مدرس لا يقدم ولا يؤخر لعدم وجود الوقت الكافي له للبحث.

* فسح المجال له ليبدع وينشر أعماله، ولِمَ لا تدريسها إلى جانب مصادر أخرى بهدف توسيع أفق الطالب من جهة، ومن جهة ثانية الاستفادة من خبرة الأستاذ.

* استعمال وسائل الإيضاح، وفي هذا المجال، يمكن تخصيص موقع على الشبكة العنكبوتية للأستاذ يتواصل من خلالها مع الطلاب.

3 ـ **فيما يخص الكتاب المقرر:**

* العمل على تأليف كتب في علوم الحديث تعتمد التيسير، ولنا في ذلك سند من سلوك المحدثين وغيرهم في هذا الباب، إذ كانوا يؤلفون مبسوطات، ثم يختصرونها للسبب المذكور، وهذا النواوي سمى كتابه في علوم الحديث: (التقريب والتيسير)... فظهرت بذلك عناية المحدثين بتيسير علوم الحديث كلٌّ بحسب الحاجة التي رآها والكيفية التي ارتضاها. وإننا، بهذا المسلك، نشارك في خلق ثقافة حديثية لا تقتصر على طلاب العلوم الشرعية.

* ضبط المصطلحات كما وردت على لسان أصحابها حتى لا يقع الخلط بين إطلاقات العلماء، ويتم تنبيه الطلبة إلى مغبة استعمالها في غير وجهها، لأنه يؤدي إلى تشويه الفكرة.

* التدرج من اليسير إلى الصعب بشكل مستساغ مقبول.

* الربط بين الجانبين النظري والتطبيقي.

* دراسة علوم الحديث في إطار وحدات موضوعية حتى يتم استيعابها وفهمها.

* استحداث جائزة لأحسن كتاب يؤلفه باحث أو يشارك فيه مجموعة من الباحثين يتوخى فيه الجدة والتيسير.

4 ـ فيما يخص المنهاج:

* وجوب توزيع محاور علوم الحديث على جميع سنوات الدراسة، وبهذه الكيفية نضمن استمرار تواصل الطالب معها، واستيعابه وفهمه لها.

* تناسب مفردات المقرر مع كل فصل بحيث لا يكون أكبر من الحجم الذي يجب أن يكون عليه ولا أصغر منه، وفي مستوى إدراك الطالب.

* تخصيص قاعة للتخريج مزودة بكافة المصادر المحتاج إليها.

* الزيادة في عدد الساعات المعتمدة في علوم الحديث والتخريج.

في جميع الأحوال، إن العلوم الشرعية لها خصوصياتها التي تتميز بها، واتباع الطريقة الغربية في التدريس أخل بمستوى التعليم عندنا، لأننا أصبحنا نقدم الشهادات بناء على عدد سنوات الدراسة ونجاح الطالب فيها، لا على حسن التمكن من العلوم الشرعية. لأجل هذا، فإن تكوين علماء معتمدين يتطلب تغيير السياسة التعليمية، لأنها إن كانت صالحة في التعليم الغربي فلأن علومها يمكن حصرها في مدة زمنية خلافا للعلوم الشرعية.

وأخيرا أقول: ميزة المحدثين أنهم يعتبرون أنفسهم دوما في مرحلة الطلب.

وبالله التوفيق والهداية.

Penulis : Prof. Mekki Klaina, PH.D (Qatar University / Faculty of Shariaa and Islamic Studies / doha - po. Box: 2713 / Qatar) **email:** adam4141@hotmail.com

لائحة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- الإحسان بترتيب صحيح ابن بلبان- ت. شعيب الأرنؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1993/1424.

3- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: ابن ماكولا، الأمير الصنعاني- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- د.ت.

4- البخاري بشرح الكرماني (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري)- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط 2- 1981/1401.

5- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير: ابن الملقن، أبو حفص سراج الدين علي بن عمر- ت. مصطفى أبو الغيط عبدالحي وأبو محمد عبدالله بن سليمان وأبو عمار ياسر بن كمال- دار الهجرة للنشر والتوزيع- ط1- 1425هـ/2004م.

6- أبو بكر بن العربي وجهوده في الدراسات الحديثية: أ.د. المكي بن أحمد اقلاينة- أطروحة دكتوراه الدولة- جامعة عبدالمالك السعدي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان- المغرب- 1993.

7- بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس: ابن عبدالبر القرطبي، أبو عمر يوسف النمري- ت. محمد مرسي الخولي- مراجعة: الدكتور عبدالقادر القط- الدار المصرية للتأليف والترجمة- د.ت.

8- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي- دار الكتب العلمية- بيروت.

9- التبيين لأسماء المدلسين: سبط ابن العجمي- ت. يحيى شفيق- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1406هـ/1986م.

10- تجربة بروناي دار السلام في تعليم اللغة العربية، وجهود جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية لتطوير هذه التجربة: الدكتور كمال عبدالعزيز إبراهيم- بحث تم تقديمه في المؤتمر الدولي للغة العربية بعنوان: "اللغة العربية بين الانقراض والتطور: التحديات والتوقعات" جامعة الأزهر الإندونيسية- جاكرتا 22-24 يوليوز 2010.

11- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: السيوطي، جلال الدين- ت. عبدالوهاب عبداللطيف- دار التراث- مصر- ط2- 1972/1392.

12- تذكرة الحفاظ: الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان- دار إحياء التراث العربي- بيروت- مصورة دائرة المعارف الإسلامية- الهند- ط 3- 1377/ 1958.

13- تعليم اللغة العربية في سلطنة بروني دار السلام: التحديات والتوقعات: فغيران حاجة سليمة بنت فغيران حاج شهاب الدين- بحث تم تقديمه في المؤتمر الدولي للغة العربية بعنوان: "اللغة العربية بين الانقراض والتطور: التحديات والتوقعات" جامعة الأزهر الإندونيسية- جاكرتا 22-24 يوليوز 2010.

14- تفسير ابن أبي حاتم الرازي، عبدالرحمن بن محمد- ت. أسعد محمد

الطيب– المكتبة العصرية– صيدا– د.ت.

15– كتاب تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت– ت. سكينة الشهابي– دمشق– 1985.

16– تيسير الوصول إلى جامع الأصول: ابن الديبع الشيباني، عبدالرحمن بن علي– تصحيح: محمد حامد الفقي– المطبعة السلفية– مصر– د.ت.

17– جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله: ابن عبدالبر القرطبي، أبو عمر يوسف النمري– دار الكتب العلمية– بيروت– 1389هـ/1978م.

18– جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري، محمد بن جرير– دار الفكر– بيروت– 1405.

19– الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد ابن علي بن ثابت– ت. الدكتور محمود الطحان– مكتبة المعارف– الرياض– 1403هـ.

20– ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية: أ.د. المكي بن أحمد اقلاينة– رسالة دبلوم الدراسات العليا (الماجستير)– جامعة محمد الخامس/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – المغرب– 1988.

21– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبدالله– دار الكتاب العربي– بيروت– ط4– 1405هـ.

22– سنن الدارقطني، علي بن عمر– ت. السيد عبدالله هاشم يماني المدني– دار المعرفة– 1966/1386.

23– سنن البيهقي الكبرى: البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي – مكتبة دار الباز – مكة المكرمة– 1414/ 1994.

24– سير أعلام النبلاء: الذهبي– حقق الجزء 15: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم الزيبق– مؤسسة الرسالة– بيروت– ط2– 1984/1404.

25– شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر: القاري، ملا علي– ت. محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم– دار الأرقم– بيروت– د.ت.

26– شعب الإيمان: البيهقي– ت. محمد السعيد بن بسيوني زغلول– دار الكتب العلمية– بيروت– ط 1– 1990/1410.

27– صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي – ت. د. مصطفى ديب البغا– دار ابن كثير – اليمامة – لبنان – ط3 – 1407 – 1987.

28– صحيح مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري – ت. محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – لبنان.

29– عمدة القاري شرح صحيح البخاري: العيني، بدر الدين محمود بن أحمد– دار إحياء التراث– بيروت– د. ت.

30– قواعد الأحكام في مصالح الأنام: العز بن عبدالسلام، أبو محمد السلمي– دار الجيل– بيروت.

31– القواعد الفقهية: الدكتور عزام– دار الحديث– القاهرة– 1426هـ /2005م.

32- الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي- ت. أبو عبدالله السورقي وإبراهيم حمدي المدني- المكتبة العلمية- المدينة المنورة.

33- لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد الإفريقي- دار لسان العرب- بيروت- د.ت.

34- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد- منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- ط 2- 1971/1390.

35- المؤتلف والمختلف، المعروف بالأنساب المتفقة في الخط، المتماثلة في النقط والضبط: ابن القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر- تقديم وفهرسة: كمال يوسف الحوت- دار الكتب العلمية- بيروت- ط 1- 1991/1411.

36- كتاب المستفاد من مبهمات المتن والإسناد: العراقي، أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم- ت. عبدالرحمن عبدالحميد البر- دار الوفاء ودار الأندلس الخضراء- مصر- السعودية- ط 1- 1994/1414.

37- مسند الشافعي، محمد بن إدريس- دار الكتب العلمية- بيروت.

38- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي- ت. الدكتور ناصر بن عبدالعزيز الشثري- دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض- ودار الغيث للنشر والتوزيع- الرياض- ط1- 1419هـ/1998م.

39- مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي: الدكتور عبدالعزيز محمد عزام- دار الحديث- القاهرة- 1426هـ/2005م.

40- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: العراقي، أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم بن الحسين- أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود- مكتبة دار طبرية- الرياض- ط1- 1415هـ/1995م.

41- المغني في الضعفاء: الذهبي- ت. الدكتور نور الدين عتر.

42- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: الفيروزآبادي، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر- دار الكتب العلمية- بيروت.

43- الموافقات في أصول الشريعة: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي- ت. الشيخ عبدالله دراز- المكتبة التجارية- د. ت .

44- النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى: أ.د. المكي بن أحمد اقلاينة- مطبعة طوب بريس- الرباط- 2002.